الدرس الخـامـس/ نقـد الروايـــة عند "عبد الملك مرتاض":

*ــ المصطلح النقدي الروائي عند "عبد الملك مرتاض":

أولا/ مصطلح الروايـــة (ROMAN /NOVEL) : يعتبر المصطلح عند "عبد الملك مرتاض" من أهم المفاتيح التي تتيح للباحث قراءة النص بشكل يسير، لذلك كان لزامًا عليه أن يتناول جانبًا تنظيريًا يخدم الناقد في تناوله للرواية، حيث شكل مصطلح الرواية في الساحة النقدية إشكالات عدة، منها عدم الثبات في بنيتها العامة، فهي تتميز بالزئبيقية والحركية والتعدد في الانجاز أثناء التأليف، حيث يرى"عبد الملك مرتاض" أنّ الرواية << تتخذ لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ تحت ألف شكل، مما يعسر تعريفها تعريفًا جامعًا مانعًا، ذلك لأنّ الرواية تشترك مع الأجناس الأدبية الأخرى بمقدار ما تستميز عنها بخصائصها الحميمة، بالإضافة إلى اشتراكها مع الحكاية والأسطورة، إنّها تغترف بشيء من النهم والجشع من هذين الجنسين الأدبيين العريقين، وذلك على أساس أن الرواية الجديدة أو المعاصرة بوجه عام، لا تلقى أي غضاضة في أن تغني نصها السردي بالمأثورات الشعبية والمظاهر الأسطورية والملحمية >>.

وفي خضم التداخل حول مصطلح الرواية، يقدم "مرتاض" مفهومًا بسيطًا لمصطلح الرواية، بعد أن قام بعرض آراء النقاد الغربيين في تعريف الرواية، قائلا:<< وأيًّا كان الشأن، فإنّ أي رواية لا ينبغي لها أن تتصف بمجرد مادتها،ولكن يجب أن تستميز بخصوصية فنية، تجعل منها شكلا سرديًا فريدًا أي شكلا قائمًا على بداية ووسط ونهاية >>. وبصورة أوضح ، فإنّ الناقد"عبد الملك مرتاض" يرى<< أنّ الرواية تتعلق بكاتبها الذي يجب أن ينشئ عالمه، وهذا العالم ينتشئ لديه عبر كتاباته، وسواء انصرف الأمر إلى وصف لظاهرة تقنية أم لوضع اجتماعي، أم لحركات داخلية، فإنّ الرواية ليست كما يزعم" فولقان فيصر" نتاجًا production على وجه الإطلاق، ولكنها إبداع CREATION >>. ليتأكد لدى الكثير من النقاد والدارسين أن الرواية هي شكل سردي قائم بذاته يعمل الكاتب على إخراجه بصورة فنية عبر قالب من الأشكال والبنى، أولها الزمان والمكان والشخصية والحوار، ولها أمور متخيلة لصنع حدثًا تسيّر إحدى هذه البنى. ثم قسم "مرتاض" الرواية إلى أنواع منها تاريخية ونفسية وإيديولوجية، بحسب ما جاءت به عند الغرب، ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ الرواية لم تُعْرف عربيًا بقدر ما عرفت كجنس أدبي حديث عند الغرب، وهم أوّل من عَرَفَها.

ثانيا/ مصطلـح الشخصيـــة: (PERSONNAGE) :

يعدّ مصطلح الشخصية من المصطلحات التي لاقت اهتمامًا كبيرا لدى الناقد، إذْ راح يفسّر وجودها ومَاهِيتُها عبر هذا المتن وغيره، فوضّح "مرتاض" مدى أهمية هذا العنصر في التشكل السردي، وأعرب عن وجود نقاد عرفوه بطريقة خاطئة، وآخرون دققوا في ذلك أيّمَا تدقيق، حيث اعتبر "مرتاض" أنّ<< الشخصية تُسخَّر لإنجاز الحدث الذي وُكِّل الكاتب إليها إنجازه، وهي تخضع في ذلك لصرامة الكاتب وتقنيات إجراءاته، وتصوراته وإيديولوجيته، أي

فلسفته في الحياة >>، ويوضح هذا التعريف الطريقة التي يتم بها إنجاز أو تأليف عنصر الشخصية داخل الرواية، بحيث تخضع لما يؤمن به الروائي، وعلى منواله يقدم للقارئ شخصية بمواصفات معينة.

فقد اكتفى "مرتاض" بعرض آراء غيره حول مصطلح الشخصية وكيفية تواجدها في النصوص الغربية، حيث عرفها مثلا في كتابه(تحليل الخطاب السردي) قائلا:<<..على حين أنّ الشخصية لدينا كائن حركي حي، ينهض في العمل السردي بوظيفة الشخص دون أن يكوّنه، وحينئذ تجمع "الشخصية" جمعًا قياسيًا على الشخصيات لا " الشخوص" الذي هو جمع لشخص، ويختلف الشخص عن الشخصية، بأنّه إنسان لا صورته التي تمثلها الشخصية في الأعمال السردية...>>

ثالثـا/ مصطلحَـا الشخصيــة المدورة والشخصيــة المسطحــة:

1- مصطلح الشخصية المدورة : يعرف "مرتاض" هذا المصطلح انطلاقًا ممَّا ذهب إليه: تودوروف، وديكرو، وفوستر بقوله:<< هي تلك المركبة المعقدة التي لا تستقر على حال ولا تصطلي لها نار، ولا يستطيع المتلقي أن يعرف مسبقًا ماذا سيؤول إليه أمرها، لأنّها متغيرة الأحوال >>غير ثابتة تتبدل مع كل الأحداث الواردة في النص.

2- مصطلح الشخصية المسطحة : وهي الشخصية الثابتة في مواقفها وصفاتها وأحوالها، وهي عند الناقد "مرتاض" << تلك الشخصية البسيطة التي تمضي على حال لا تكاد تتغير ولا تتبدل في عواطفها ومواقفها وأطوار حياتها عامة، وهذا التعريف متفق عليه في النقد العالمي شَرْقِيَهُ وغَرْبِيَهُ >> .

رابعـا/ مصطلح السرديـــــة (NARRATOLOGIE) :

لقد ألفينا اختلافًا كبيرا في تسمية مصطلح السردانية، بَيْن مَن يطلق عليها السرديات، السردية، والسردانية....الخ، وكلها تصب في كلمة واحدة أو علم واحد، وهو علم السرد. وقد تحدث الناقد "عبد الملك مرتاض" عن مصطلح السردية، وهو يسميه "السردانية" بقوله:<< إنّ السردانية تركح على السرد، والسرد يجسده العمل السردي، والعمل السردي يركح الذاكرة الشفوية، والذاكرة الشفوية تركح على الذاكرة الجماعية، والذاكرة الجماعية تجسد ذهنية شعب من الشعوب بامتياز...>> .

ولعل شرح هذه المقولة يفضي بنا إلى نتيجة مفادها أنّ السردية لدى "مرتاض" تعني في الأغلب وجود مجموع من الحكايات الشعبية المحفوظة في الذاكرة الجماعية، فالمعنى هنا جلي ويحمل خطابات عدة داخل الحكاية الواحدة لتتميز في الأخير بوجود أكثر من مؤلف لأنّ السردية تتطلب ذلك. كما أكد الناقد على وجود السردانية من خلال تقنين شبكة السرد المتكونة من العمل السردي والسارد والمسرود له... بالقول أن<< السردانية هي الشبكة المتكونة من السارد والمسرود له، بحيث تحتاج هذه الشبكة إلى تقنين لم يتحقق>>.

خامسـا/ مصطلح السـارد (NARRATEUR/NARRATOR):

يتعلق مصطلح "السارد" بمن يحكي القصة أو الرواية بشكل عام مستعملا في ذلك أداة للحكي وهي الأحداث والأفعال التي تحدث أو تطرأ فجأة على الشخصية، لأنّه من صنع المؤلف، وقد فرّق الناقد"مرتاض" بين مصطلحي الؤلف والسارد منخلال الوظيفة والدور الذي يختص بهما، بقوله: << ليس السارد هو المؤلف ذلك واضح، وإنّما السارد شخصية خيالية يتحول المؤلف من خلالها، فكأنّ شخصية السارد من المنظور العجيب تقع وسطًا بين المؤلف والشخصية الفاعلة في العمل السردي، أو قل إن السارد كما يزعم "بوث" شخصية منزوعة عنها صفاتها وليس لها وظيفة >>. يقدم "مرتاض" هنا معنىً بسيطًا للسارد بخيالية السارد، كما لا يرفض خياليته بشرط أن تكون في أطوار معينة من العمل السردي، لأنّ المؤلف وهو يؤلف روايته يكون واعيًا بإبداع شخصياته خاصة السارد، لأنّها من الممكن أن تكون بطلا

لهذا العمل، يقول"مرتاض" موضحا خيالية السارد وعدم رفضه لها<< إنّنا نسلم بخيالية السارد في أطوار معينة من العمل السردي، لكن كيف يمكن أن يتحول المؤلف إلى كاتب غريب معتوه غير واعٍ، غير مفكر عن طريق شخصية السارد...؟.>>، وقد فصل "مرتاض" في بعض المفاهيم التي تفرّق بين مصطلحي المؤلف والسارد من خلال جملة من العناصر، كان أولها ما يلي:

1ـ أنّ المؤلف مؤلف، والسارد سارد، أي لا يكون ذلك ولا ذلك يكون هذا، فأحدهما يكتب ويسجل عالمًا يخترعه بنفسه لنفسه أو متلقيه، ويقدمه في خطاب مكتوب.

2ـ السارد لا يكون أساسًا إلا في المسرودات الشفوية، أما السارد في المكتوبات فإنّه يندمج اندماجًا كلّيًا في المؤلف.

3ـ أنّ السارد لا ينبغي له أن يكون مؤلف أبدًا، ولكن وضعه يمثل في المحكيات (الحكاية الشعبية، الأسطورة، الخرافة) لا في المحكيات الكتابية(الرواية، القصة، الأقصوصة).

يفهم من هذه العناصر أنّ الناقد يقصد بمصطلح السارد هو ذلك الشخص الذي يروي الحكايات والقصص الشعبية التي يتناقلها الأجيال بدون مؤلف، وهو هنا راويًا لا ساردًا، أمّا السارد فإنّه يتطابق مع ما هو مكتوب من القصص والسرد بصفة عامة.

سادسا/ المسرود له أو المروي له : (NARRATEE/NARRATAIRE)

يتعلق هذا المصطلح بوجود قارئ للعمل السردي وقد أخذت مسألة المسرود له حيزا معتبرا من الدراسة عن طريق مجموع من الباحثين المختصين في نظريات القراءة الحديثة وكذا المهتمين بشؤون السرد والسرديات على حدّ السواء، كما يتعلق أمر المسرود له بالإبداعات الشفوية والنصية المكتوبة التي تصف الأحداث بناء على واقعيتها تارة وخيالها تارة أخرى.

وقد خص"مرتاض"(**المسرود له)** بمصطلح **(القارئ)** واكتفى أثناء حديثه عن العلاقة بين المؤلف والقارئ بقوله: <<القارئ هو الذي يتلقى النص الروائي جاهزًا كاملا محبوكًا، مصنعًا، مُرتّبًا، بحيث ليس عليه هو إلّا أن يقرأ أو يتمتع بما يقرأ... فدوره كان إذن استهلاكيا محضا>>، يتحدث الناقد هنا عن ما يعرف بقارئ الإنتاج التقليدي الذي لم يكن له دور إلا القراءة فحسب، دون إبراز رأيه، أي أنّه يعمل على استقبال وتلقي العمل السردي لأجل المتعة والتسلية بطريقة استهلاكية غير منتجة لما هو جديد.

أما قارئ الكتابة الجديدة، فقد أضحى دوره الإنتاج والتكملة لما هو ناقص، وينتظر منه الرد برأي يخدم النص بالأكيد وهو كذلك كما عبر عنه "مرتاض" حينما اعتبر بأن دور القارئ اليوم أضحى<< مركزْيًا ذلك لأنّ النص الذي يقدّم إليه ليس كاملا ولا جاهزا ولا مصنّعًا، ولكنه نص غير محبوك وينتظر قارئه أن يبذل فيه جهدًا يكمل به بناءه، فدور القارئ في مثل هذه الحال كأنّه بنائي، لا استهلاكي، فكأنه وهو يقرأ يتناص مع المؤلف، فيحاول مواكبته بإكمال بناء النص المقروء>>. وهذا يفسر أنّ مجيء الحداثة غيَّر من مكانة القارئ، وأصبح يشارك المؤلف في عمله متراوحًا بين ناقد له، ومُحلِّلاً وشارحًا، وواصفًا، ومُكمِّلاً في أحيان كثيرة، بل وكما جاءت به نظرية القراءة والتلقي لدى "ياوس" و"يونغ" وغيرهم، ممن أكدوا على مكانة القارئ ودعوا إلى الأخذ بها.